الاستقلال الاجتماعي

وأثره فى الأمة وفى الحضارة

بقلم الدكتور منصور فهمى بك

حينما ندعو للاستقلال الاجتماعى ونجأر بتلك الدعوة ليسمع صوتنا فى الآفاق القريبة والبعيدة وفى مصر وفى غيرها من بلاد العروبة ، فاننا ندعو الى ما يتم الاستقلالين السياسى والاقتصادى اللذين بذلت فى سبيلهما الجهود السخية وما زالت تبذل لاستكمالهما ودعم ما يقومان عليه من الأسس . ومعنى ما اصطلحنا على تسميته بالاستقلال الاجتماعى ليس فى جملته الا الحرص أولا على ألا نضيع ولا نضعف شيئا من خصائصنا الاجتماعية المستحسنة التى ورثها لنا الآباء ، وأصبح من البر بذكراهم ومن متممات عزتنا ألا نفرط فيها . وثانيا أن نحرص على تخيل الأحسن وتخيره فى كل مظهر نستوحيه من عصرنا واتصالنا بغيرنا من الأمم . فاذا لاح لنا بحكم اتصالنا بالشعوب الأخرى أن نقتبس عنها نظاما أو نتخذ أسلوبا من أساليبها ، فلا ينبغى أن نقتبس هذا النظام أو نتخذ هذا الأسلوب دون أن نغيرهما تغييرا يكسبهما صبغة من ذوقنا واتساقا مع ما ألفنا ودرجنا عليه .

ولأضرب بعض الأمثال توضيحا للوجهة التى أتحدث فيها : هب أن من مظاهر الاحترام فى أمم الغرب أن يلقاك الغربى عارى الرأس ، فهل أنت مضطر أن تلقى من يطيب لك احترامه بنفس الهيئة التى يتهيأ بها الغربى ؟ وما الذى يفضل به المظهر الغربى على مظهرك حين تحيى من تحترم دون أن تحسر عن رأسك ؟

وهبك علمت أن فى بلد من بلاد الغرب لا يجد الوالد تفريطا فى حقه من الاحترام حين يجلس منه ولده ملتف الساقين مشعلا غليونه ، فهل من الضرورى وهل من مستلزمات الحضارة أن تصطنع أنت مثل هذه الجلسة أمام أبويك أو ذويك ممن هم جديرون منك بمظاهر الاحترام والتبجيل ؟

وهب أن سيدة من تلك السيدات الشرقيات نشأت بحكم ماضيها وتقاليدها الموروثة شديدة الحياء يؤذيها أن تعرض للعين صدرها العارى أو ذراعها المكشوفة ، وهبها رأت فى محفل من المحافل الساهرة أن الغربيات لا يؤذيهن أن يحسرن عن صدورهن أو أذرعهن . أفتلزم هذه الشرقية أن تحاكى الغربيات فى تقاليد تلك الحفلات .

وهبك فى سياحة من سياحاتك أعجبت بمنظر قصر من القصور قام على ربوة عالية وفيه ابراجه القوطية وحوله أسواره الحصينة بين الصخور والجلاميد ، فهل القصر حين كسب جمالا من هندسته الخاصة و بيئته الصخرية وسمائه المكفهرة يصبح بهذا الجمال لو بنى فى أرضك الطينية المنبسطة وتحت سماء بلادك الصافية بنفس الرواء والجمال ؟

وهل إعجابك بمثل سائر من أمثال السويديين يندس فى قطعة من أدبهم الرائع ، يصبح له نفس الوقع اذا نقلته من لغته وأخرجته من سياقه ولفائفه لتدسه فى أدبك العربى ؟

أزعم أن كثيرا من العادات ومن مظاهر الأخلاق ومن مظاهر الفنون لا يغنى ولا يكسب إذا حولناه عن بيئته وظروفه ، وأزعم أن الذى ينتحل مظاهر غيره من الأمم من غير تحفظ ومن غير احتراس يكون مثله مثل الغراب فى قول القائل :

إن الغراب كان يمشى مشية ... فيما مضى من سالف الأجيال

حسد القطاة فرام يمشى مشيها ... فأصابه ضرب من العقال

وقد نسأل أنفسنا : ما هى العلة التى تهون على الكثيرين تناسيهم لحق الأمة فى استقلالها الاجتماعى والتمسك بمشخصاتها ؟

أرى أن الذين ينسون حق الأمة فى ذلك ، إما أنهم لا يحسنون تقدير ما عندهم وما عند الغير ويجهلون حقائق القيم التى ألفوها ، وقد قيل قديما : " زامر الحى لا يطرب " وإما أنهم ضعفاء الثقة بأنفسهم فاضمحلت فيهم خلة التحيص وضاعت منهم الدوافع الى الأحسن فذلت نفوسهم وافتتنوا بما للغير من مظاهر قوته ونشاطه .

وقد يتيسر للباحث أن يدرك ما عليه جمهورنا من قلة العلم وضعف الثقافة فيلتمس له المعذرة فى سوء تقديره لقيم الأمور وانصرافه للمحاكاة من غير نقد ولا تعقل . لكن الباحث يقع فى حيرة عند تعليل ما يشهده من انصراف طائفة من صفوة رجالنا والمفكرين منا والسراة عن حميد تقاليدهم وصالح فنونهم وجميل أخلاقهم الى تقاليد الغير وفنونه وأخلاقه . وأيسر ما يعلل به هذا الأمر المشاهد أنه من غواية الافتتان. فقد تصاب الجماعات أحيانا كما تصاب الأفراد بحالات من التأثر أشبه بحالات الاستهواء والتنويم ، فتضعف الشخصية وتعطل القوى الموجهة المفكرة البصيرة ولا يكون ثمة الا وجهة واحدة ، الوجهة الساحرة المالكة على المرء همه وعقله . وتلك حالة مرضية يقصر أمدها أو يطول باختلاف عناية المصلحين والاجتماعيين فى مقاومتها أو اهمالها .

ان شعور الأمم بحاجتها الى الاستقلال الاجتماعى والتميز لمن أقوى الأدلة على حيويتها وادخارها لقوى كامنة تمد الرقى العام والحضارات البشرية . فكما أن الشخص الحريص على استقلاله فى الرأى قد يكون مؤمل النفع مرجو الخير فى الحياة العامة وأفضل لتلك الحياة وأبقى أثرا من الإمعة الذى يساير الغير ويتبع كل قافلة حيث تروح ، فكذلك الحال فى الأمم . فان الحضارة العامة تستمد العون فى رقيها من الشعوب المحتفظة بمقوماتها عن بصيرة والمعتزة بما لديها من مظاهر العظمة . وذلك لأن الكمال المنشود للانسانية ليست غايته تجانس الأمور ، وإنما غايته التميز والتعدد والتنوع . فبارئ الأرض خلقها متنوعة البيئات والأجواء ، مختلفة الأجناس والأمم ، متباينة المواهب ، وإن فى كل بيئة وفى كل خليط من الناس وفى كل موهبة من المواهب مدخرا خاصا من الخير يمكن استغلاله لمصلحة الانسانية .

وربما كان فى تيسير المواصلات بين مختلف بقاع الأرض ، وفى تزايد الاتصال بمختلف الشعوب ، ماحدا ببعض المفكرين الى أن يتخيلوا فى مدنية المستقبل صورة متشابهة الأجزاء . وقد لا يخطئ هؤلاء المفكرون حين يقدرون أن تيسير المواصلات يؤدى إلى تعارف الأمم بعضها ببعض ، ويؤدى إلى أن ينتفع بعضها بجهود بعض . لكن ذلك كله لا يؤدى حتما إلى تجانس الحضارة . وذلك لأن الأمم القوية الحيوية بمقدار ما تغمرها مشخصات غيرها بمقدار ما تمعن هى فى رغبتها فى التميز عن هذا الغير حرصا على توكيد كيانها الذاتى ، وعندئذ تلجأ هذه الأمم الممعنة فى توكيد ذاتيتها إلى أن تتخذ من اختلاف الجو واختلاف الأحوال التاريخية واختلاف المشارب والأمزجة ما يعين على انتحال ماتتميز به وتتشخص . وكلما كانت حيوية الأمم الناهضة شديدة وشعورها بذاتها قويا ، كان حرصها على التميز أشد لكى تتفرز وتنفرد بصورتها عن غيرها ، برغم تزايد الاتصال الذى يدفع الى التشابه ، وبرغم تيار المحاكاة الذى يجر إلى التجانس . وتلك نزعة فطرية فى الأفراد الأقوياء وفى الأمم الصالحة للبقاء . فالرجل القوى يستفيد من نزعة المحاكاة ويستخدمها ، كما أنه يزع الى أن يتميز عن الذى يحاكيه ويقلده ويريد أن يبزه معتمدا فى ذلك على خير ما يكون لديه من خصائصه الذاتية أو على ما يمكن أن يكون له من خصوبة فى النفس وقدرة على الابتكار .

وأعتقد أن الانسانية تغنى كلما كانت مجموعة حضاراتها أشبه بطاقة تختلف أزهارها . ولعل الحديقة التى تختلف فيها أنواع الرياحين وتتناسق تكون أروع من التى تتماثل فيها الورود والأزاهير .

وإذا صرفنا النظر عما تكسب الحضارة العامة من مشخصات الأمم وجدنا أن الأمم التى تريد أن تتخلى عن مميزاتها قد تضيع على نفسها الكثير من الخير الاقتصادى والعمرانى .

ذلك لأن الناس تجذبهم الأصقاع والبلاد التى يجدون فيها شيئا يغاير ما ألفوه فى أصقاعهم و بلادهم . وهم عند ما تجذبهم هذه الأصقاع فيقصدونها سائحين ناظرين معتبرين ، فإنهم يستفيدون و يفيدون .

و بناء على ما تقدم ينبغى أن يحرص الأفراد ، كل بقدر ما يستطيع ، على مقومات أمته والسير بهـا الى الأحسن . و إن الذى يفرط فى حق من حقوق المقومات المستنيرة الصالحة إنما هو مفرط فى حق من حقوق الوطن . ولا يشفع له أن يقال إن الحضارة العصرية تجره الى هذا التفريط . فركوبك السيارة ، واستخدامك الكهرباء ، وانتفاعك بثمار الصناعات والعلوم ، كل ذلك لا يبيح لك الخروج عن عادتك المستحسنة ومظاهرك الاجتماعية حين لا تتعارض فى شىء مع ما تنتفع به من صناعات العصر وفنونه . وقد انتفع الكثيرون من أهل العروبة ومن أهل الهند بالكثير من مظاهر الحضارة العصرية ، ومع ذلك ظلوا هنودا وظلوا عربا فى الكثير من مظاهرهم . وقديمـا أخذت حضارة الاسلام من معارف اليونان وحرصت مع ذلك على أن تظل اسلاميـة وقديمـا أصابت أوروبا قسطا وفيرا من معارف العرب والمسلمين ومع ذلك حرصت أوربا على أن تظل غربية الطابع . فلنا أن نأخذ ما يلائمنا من حضارة العصر الحاضر دون أن يستلزم ذلك الأخذ تفريطا فى مقوماتنـا ما دمنا نحرص على أن تكون لنا مقومات واستقلال اجتماعى .

ربما سأل سائل عن بعض النواحى التى يجب أن تكون أساسا لاستقلالنا الاجتماعى . وها أنا ذا أذكر منها أربعا على سبيل الايجاز :

(أولاها) الحياة الزوجية .

(ثانيتها) النخوة والكرم وهما يرتكزان على أسس الغيرية والإيثار .

(ثالثتها) فن العمارة .

(رابعتها) فن الأزياء والمندام .

ففى بلاد الشرق نبتت الديانات السماوية . فالطابع الدينى ينبغى أن يكون واضحا فى نفوسنا بيّن الأثر فى مظاهرنا الاجتماعية . وفى الشرق دوى منذ القدم صوت من قال : « أحبب لأخيك ما تحب لنفسك » ومثل ذلك الصوت من شأنه أن يضعف أنانية المرء لحساب غيريته و يزيد دوافع النجدة فيه والمروءة على حساب الأثرة وحب الذات .

وأما فن العمارة فقد عدت عليه عوادى الزمن الحديث الى درجة أساءت الى الجمال الفنى الذى يساير أضواء بلادنا والى الحاجة الصحية التى تساير أجواءها ، فارتفاع فى العمائر حيث

لا يليق الارتفاع ، أوضيق حيث لا يناسب الضيق ، وضحى بجمال الأقواس وازدواج الخطوط لأجل البساطة التي يرضاها الذوق المشرع القانع .

أما الملابس فقد أسرفنا وأسرف معنا بعض أمم الشرق فى اتخاذ ملابس الغربيين وبخاصة ملابس السيدات ، فسخت بذلك أشكال وشوهت بذلك وجوه . فحيث كانت العمائم والعقل والخمر تزدان بها رءوس وتجمل بها وجوه وتحلو بها نفاسيم ، اضطربت وا أسفاه تلك الوجوه تحت القبعات وما يشبهها ، وابتذلت الأعضاء بالمحاسر وما يحاكيها . وعلى الجملة بدّل بالمحاسن ما دونها من غير اقتضاء إلا ضعفنا للحاكاة والتقليد والتفريط فى معانى القومية والاستقلال الاجتماعى .

آن للشرقيين أن يجملوا ما يتخذونه من عتاد الحضارة وأن يستروا ما يتدرعون به من قوى المدنية فى زيهم الشرقى الجميل . وآن لنا أن نقول للصغرين من شأن مشخصاتنا القومية المستهترين بها الولوعين بكل ما فى الحضارة الغربية الراهنة — آن لنا أن نقول لهم : مكانكم ، إنكم تريدوننا أن نشرب من ماء المصب بعد أن كدر وتلوث من المجرى ، وتريدوننا أن نأخذ من مدنية آذنت بالأفول . أما نحن فنريد أن نروى من المنبع الصافى والمصدر الفياض ، وأن نستضىء بنور الحق الأبدى والمدنية الصادقة والعرفان الصحيح .

منصور فهمى

من أخلاق الخلفاء

قيل لمعاوية بن أبى سفيان : من أحب الناس اليك ؟ فقال : "من كانت له عندى يد صالحة" فقيل له : ثم من ؟ فقال : "من كانت لى عنده يد صالحة".

قال رجل لعبد الملك بن مروان : "انى أريد أن أسرّ إليك شيئا" فأشار عبد الملك إلى أصحابه بالانصراف . ولما أراد الرجل الكلام استوقفه الخليفة وقال : "قف . لا تمدحنى فأنا أعلم بنفسى منك . ولا تكذبنى فانى لا أعفو عن كذوب . ولا تغتب عندى أحدا فلست أستمع إلى مغتاب".

فبهت الرجل وقال : يا أمير المؤمنين : افتأذن لى بالانصراف ؟ قال : "انصرف إذا شئت ، ولا تعد الينا".